فنست بكلى

الشعر والأخلاق

لا يعالج الأستاذ فنست بكلى مؤلف هذا الكتاب، وهو من رجال جامعة كامبردج، العلاقة بين الشعر والأخلاق من الناحية الفلسفية المجردة، وإنما من خلال دراسته لأعمال ثلاثة من كبار النقاد المحدثين هم ماثيو أرنون أبو النقد الحديث، وت.س. إليوت و ف.ر. ليفز.

وكان بكلى حين يتحدث في أوساط أساتذة الأدب بجامعة كامبردج عن نيته في تأليف كتاب عن الشعر والأخلاق، يجد بعضهم لا يميل على الإطلاق لأن يعترف بوجود علاقة بين الكلمتين، بل إن هذا البعض كان يسخر منه ويقترح عليه تسمية الكتاب "الشعر وفساد الأخلاق"!! وأما الفريق الآخر ممن لهم اهتمام حقيقي بالأدب إلى جانب اهتمامهم بفروع البحث الأخرى فقد وجدوا أن المشكلة تحيرهم، فبعضهم يعتبر

obeikandl.com

الشعر شيئًا مختلفًا تمام الاختلاف عن الأخلاق "كاختلاف الشرق عن الغرب لا يمكن لهما أن يلتقيا، والبعض الآخر يعتقد أنه من الممكن اكتشاف علاقة بينهما عن طريق استخدام منهج فلسفي تحليلي" . ومن جماع هذه الآراء خرج بكلى بنتيجة مهمة هي أنه هناك مشكلة تستحق البحث، هي مشكلة العلاقة بين الشعر والأخلاق. ولكي نرى إلى أي مدى تختلف الآراء وتتناقض حول هذه المشكلة يجب أن نستعرض الاتجاهين الرئيسيين بشكل نظري أولاً:

الاتجاه الأول : وهو الرأي القائل بأن لا صلة أو علاقة تربط الشعر بالأخلاق، وحجج هذا الرأي هي كما يلي :

١- أن الشعر صناعة ليس لها علاقة بالقيم الأخلاقية شأنه شأن أي صناعة أخرى.

٢- أن الشعر والأخلاق نوعان من نشاط الإنسان ينفصل الواحد منهما عن الآخر، ويكتسب أهميته باستقلاله الذاتي.

٣- أن الشعر يعبر عن الحياة على مستوى سابق على الأخلاق (انظر مدرسة السريالية).

٤- أن الشعر يعبر عن الحياة على مستوى صوفي أو على مستوى ما بعد الأخلاق.

٥ ـ أنه قد توجد بعض العلاقة بينهما، ولكنها علاقة عرضية لا تعني النقد في شيء (رأي الأغلبية العظمى من النقاد الأكاديميين).

والاتجاه الثاني: هو الرأي القائل بأن هناك علاقة وثيقة بين الشعر والأخلاق، وهذا اتجاه ينقسم إلى مجموعتين :

(أ) من ناحية الأثر الناجم عن الشعر :

١ - أن الشعر له وظيفة اتجاهية مباشرة.

٢ - أن وظيفة الشعر هي أن يريح القارئ نفسيا ويوسع من دائرة موقفه الأخلاقي عن طريق الحث المباشر على اعتناق عواطف أخلاقية معينة.

(ب) من ناحية ما "يتحقق" بالفعل في الشعر :

١ - أن الشعر أخلاقي بالضرورة في اتصاله بالحقيقة، وأنه "يجسم" رؤيا أخلاقية، ودراسة ذلك هو الاختصاص الشرعي للنقد الأدبي، وليس ما يحدثه الشعر من أثر.

٢ - أن الشعر يختص بالحقيقة الأخلاقية بوصفها انعكاسا لأبعاد أكثر أهمية وهي الأبعاد الدينية والميتافيزيقية.

وجميع هذه الآراء من الممكن مناقشتها وإثبات صحتها أو بطلانها، ولكن هذا سيدخل بنا في مجال النقاش الفلسفي الذي لا يرتكن إلى أمثلة بعينها من التاريط الأدبي مما لا يتعرض له "بكلى" وإنما هذه الآراء السابقة تعطيني فكرة واضحة عن طبيعة تناقض الآراء حول هذه المشكلة.

ولا يحاول المؤلف أن يعطي رأيا نهائيا في المشكلة إذ يقول إنه من العبث أن نحاول الإجابة عن السؤال التالي :

"إلى أي مدى تتحدد جودة القصيدة أو سوؤها بجودة مقاييسها الأخلاقية أو سوئها، إذا كانت تحتوي على مثل هذه المقاييس على الإطلاق؟".

وهي محاولة عابثة لأن هذا السؤال ليس هو السؤال الوحيد الحيوي الذي يمكن أن يخطر ببالنا إزاء قراءتنا لأحد الأعمال الفنية، وإنما يمكن أن نسأل أنفسنا أسئلة كثيرة تتعلق بالعمل الفني بوصفه فنا ولا نستطيع أن نحدد الإجابة عنها إلا من خلال دراسة الأعمال الفنية الكبيرة. ولهذا السبب لا يختار المؤلف أن يدرس الشعر دراسة نصية مباشرة وإنما يدرس نقد الشعر وأن هذا النوع من الدراسة هو- بشكل غير مباشر- دراسة للشعر نفسه. وهو لا يختار الدراسة النصية لعدة أسباب أهمها:

أنه يبدو مستحيلا أن نعرف الشعر نفسه تعريفا محددا يمكن أن نحدد به مكانه من الأخلاق، فالتعريف الوحيد الذي نستطيع القيام به هو تعريف "الشكل" الشعري. وحتى "الأخلاق" نفسها لا يمكن تعريفها بسهولة كبيرة، فمعنى "الأخلاق" الذي نحتاج إليه في دراسته للشعر ليس معنى قاصرا على معيار خاص بالشعر وحده، ولكنه معنى واسع يشتمل على المقاييس التي تتعلق بمظاهر السلوك من جانب، ومعرفة الخير والشر والتفرقة بينهما أو الانحياز إلى أيهما من جانب آخر.

ومما يلزم التنويه به أن النقاد الثلاثة الذين يتعرض لهم الكتاب، لا يحاولون في كتاباتهم أن يضعوا تعريفًا محددا للأخلاق ونسبتها إلى الشعر وإنما يظهر اهتمامهم بالجانب الأخلاقي في الشعر عندما يدرسون النماذج الشعرية العظيمة أو النماذج التي تحتوي على رؤيا فنية غريبة تبرز العلاقة بين الشعر والأخلاق بشكل مباشر. وهنا نستطيع أن ندرك أن السؤال الذي يعترضنا في دراستنا للأعمال الشعرية هو:

obeikandl.com

إلى أي مدى يمكن للشاعر العظيم أن يكون أخلاقيا بدرجة عظيمة؟ وإلى أي مدى يكون اهتمام الشاعر بمادته الفنية اهتماما بالقيم الأخلاقية التي تحتوي عليها هذه المادة؟

وهذا ما يحاول المؤلف أن يتعرض له في دراسته لأعمال النقاد الثلاثة الكبار وتحليله لها، فهو لا يتناول نظرياتهم النقدية بعامة وإنما ذلك الجانب منها الذي يعنيه وهو الذي يتعلق بمشكلة الشعر والأخلاق. وهو يقول إنه يدرس أعمال الثلاثة بالذات لأنهم يشتركون في سمات عامة يلخصها فيما يلي:

- أنهم جميعا أخلاقيون بشكل أو بآخر .

- أنهم جميعا لا يهتمون بالنظريات التي تتحدث عن طبيعة الشعر بشكل عام.

- رغم أن لكل منهم مفهومه الخاص عن الجانب الأخلاقي للشعر، إلا أن كلا منهم يعطي عناية خاصة لكلمة "الأخلاق".

- جميعهم يعتقدون بأن القيم الأخلاقية في العمل الفني تتمشى مع القيم الفنية ولا يحاولون بأي حال أن يجعلوا القيم الجمالية بديلا للحياة.

- كل من النقاد الثلاثة مشغول بنفس المشكلات في مجالي الأدب والمجتمع.

- كلما قرأنا أعمالهم اكتشفنا أنهم على وعي تام بأنهم جزء من تراث كبير يحاولون قدر طاقتهم أن يلقوا الضوء عليه بوصفهم جزءا منه.

وهذا لا يعني أنهم متفقون في الرأي بل العكس فالاختلافات بينهم كبيرة وكثيرة.

ويعتذر المؤلف عن إبداء رأيه في المشكلة فهو يعتبر أن إبداء الرأي تبسيط للمشكلة وتسطيح لها أكثر من اللازم، ولكنه مع ذلك يحذرنا من أن نجعل القضية قضية صراع بين الشعر التعليمي، وفكرة الفن للفن، إذ أنه ليس هناك شيء اسمه شعر لا يلتزم بشيء ما، كما أن الشعر التعليمي بعامة عاجز عن التأثير في الناس. ولكننا نستطيع أن نشتم رأي المؤلف عندما يقول إن من يعتقدون أن الشعر له هدف أخلاقي خارج نطاقه، يطلبون من الفن أكثر مما نستطيع تحقيقه، ومن هنا تظهر النظريات النقدية التي يعتبر فيها الشعر "بديلا" لشيء آخر أو حتى لكل شيء آخر. فمن الغباء أن نسأل الشعر والفنون بعامة أن تعزي الإنسان وتريحه نفسيا أو "تنقذه" من مشكلاته، و مثل

هذه الآراء تجنح بنا إلى التضليل أو خيبة الأمل أو إلى الاثنين معا، والذين يهتمون بالأدب اهتماما حقيقيا يستطيعون أن يوفروا على أنفسهم الكثير من خيبة الأمل إذا كان نظرتهم إلى الفن نظرة واقعية ويستشهد "بكلى" بالحوار التالي الذي أورده أحد المؤلفين، بين بروميثوس والمغني أورفيوس، فعندما سأل بروميثوس عن أغنية أورفيوس، إجابة الأخير بقوله: "اسمعها مرة أخرى" فقال بروميثوس: "ولكن هل هذه الأغنية تحض البشر على ممارسة الفضيلة؟" فأجاب أورفيوس: "كلا وإنما هي تحفظ لهم الحرية في أن يفعلوا الخير أو الشر" فقال بروميثوس: "إذن فهي أغنية أخلاقية" فأجابه: "كلا.. ولكن إذا أردت وعظا فالمعابد مفتوحة!!".

وفي السطور التالية سأحاول أن أعرض في شيء من التفصيل للباب الذي يتعرض فيه "فنست بكلى" لرائد النقد الإنجليزي الحديث ماثيو آرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨). يرى بكلى أن آرنولد صعب التفسير لأنه من العسير معالجته بشكل "موضوعي" إذ أنه من أكثر كتاب العصر الفيكتوري تأرجحا، ورغم ذلك فإن موقفه الأساسي موقف بسيط في جوهره، وهو أن الشعر عمل ديني. "فآرنولد" يطلب من الشعر أن يعلمنا ويعزينا ويبث في

نفوسنا القيم الأخلاقية بنفس الشكل الذي كان كثير من معاصريه يتوقعونه في الدين. أما "ماذا" يعلم الشعر، "وكيف" يعلم، فإن آرنولد لا يعطينا إجابة محددة في هذا الصدد، والسبب في أن آرنولد يطلب من الشعر أن يؤدي مهمة الدين نابع من كونه ابنا مخلصا للعصر الفيكتوري الذي كانت تسيطر عليه فكرة الدين دون أن تتغلغل إلى نفوس أبنائه.

فقد كان الاهتمام الأكبر لأبناء العصر الفيكتوري ينصب على الإخلاص للدين بوصفه قمة الإحساس الأخلاقي ولم يكن يعنيهم كثيرا روح الدين المسيحي نفسه والرؤيا الصوفية فيه. ولذلك فإننا إذا قلنا إن الشعر عند آرنولد عمل ديني، يجب أن نخصص القول أكثر من ذلك.

يقول آرنولد في الفقرة الأولى من مقاله الشهير "دراسة الشعر": "ينتظر الشعر مستقبل عظيم، لأنه في ذلك الشعر الجدير بتأدية واجباته السامية، سيجد جنسنا البشري الأمن والطمأنينة كلما أوغل الزمن في التقدم. فليس هناك عقيدة لم تهتز بعد، ولا إيمان مسلم بصحته لم يتطرق إليه الشك، ولا تقاليد متوارثة لا يتهددها الانهيار. لقد جمد ديننا نفسه عند الحقيقة المجردة فخذلته هذه الحقيقة.

أما بالنسبة للشعر فالفكرة هي كل شيء. وما عدا ذلك فهو وهم، وهم سماوي.. إن أقوى جزء في ديننا الآن هو ما يتضمنه من شعر".

و"الواجبات السامية" التي تنتظر الشعر والذي هو جدير بتأديتها هي أن يكون بديلا للدين، أو على الأقل لما يمكن أن يؤديه الدين من وظيفة عاطفية. ولا يجد آرنولد صعوبة في تحقيق ذلك فالشعر والدين يشتركان بالفعل في كثير من الأشياء. ولقد كانت هذه الفكرة محل نقد وتحليل كثير فمثلا يقول إليوت في كتابات آرنولد في المسيحية: "إن هذه الكتابات سلبية بدرجة مملة، وسلبيتها من نوع خاص، فهي تهدف إلى إثبات أن عاطفة المسيحية يمكن، بل ويجب، الحفاظ عليها، بدون الإيمان، ومن هذا الرأي يمكن لرجلين مختلفين أن يستخلصا نتيجتين مختلفتين:

١ - أن الدين هو الأخلاق .

٢ - أن الدين هو الفن. فهدف حملة آرنولد الدينية هو أن يفصل الدين عن الفكرة.

ولكن هذا النقد في رأي "بكلى" ليس دقيقا بدرجة كبيرة، إذ أن آرنولد لا يهتم بمجرد الحفاظ على "**عاطفة**" المسيحية دون الإيمان، وإنما يبدو أنه يريد أيضا أن يعيد تعريف الدين فلا يصبح "الرباط" بين الله والإنسان، يعبر عنه بالضرورة من خلال الطقوس الدينية،وإنما يصبح حالة نفسية- **عاطفية**.

فالدين عند آرنولد ليس سوى عاطفة وما يطلبه آرنولد من الدين يطلبه من الشعر، وهي مطالب لها علاقة وثيقة بما يتوقع أن يجده في الشعر بوصفه قوة أخلاقية.

والقضية التي يروج لها آرنولد وخاصة في مقال "دراسة الشعر" هي أن الشعر يأتلف العواطف الدينية والأخلاقية والجمالية ويكون منها كلا واحدا، فلا يدمر أحدهما الآخر أو يظهر على حساب العواطف الأخرى بل تنمو جميعا جنبا إلى جنب. ومن الواضح أن آرنولد يؤمن بأنه يحرر كلا من الدين والأخلاق من الشوائب وفي نفس الوقت يحافظ على التراث الرئيسي للشعر الغربي. وقد نظن أنه من المزعج أن يضع آرنولد ثقته كلها في العاطفة في الشعر والدين والأخلاق على السواء، ولكننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن ما يريد أن يحتفظ به من الدين هو **العاطفة** الدينية، أي الدين بدون قواعد

محددة أو نظرية فكرية خاصة أو أي نظام خاص، بل يعتقد أن مثل هذا النظام ينتج عن أثر الشعر في السمو بالبشر، وبهذا المفهوم يصبح الشعر هو المظهر الروحي في "الدين" عند آرنولد، فهو يقول:

"شيئًا فشيئًا سيكتشف البشر أننا يجب أن نرجع إلى الشعر ليفسر لنا الحياة، ويريحنا ويشد أزرنا".

ولكي نلم جيدا بطبيعة الوظيفة التي يتوقع آرنولد من الشعر أن يؤديها، يجب أن نعرف مفهومه عن قيمة الشعر. وعنده أن الشعر هو "نقد الحياة".

وهو يفصل هذا الرأي في مقالة عن موريس دي جوران: "قوة الشعر الكبرى هي قوة تفسيرية، وأعني بذلك.. معالجة الأشياء بشكل يوقظ فينا إحساسا جديدًا رائعًا ووثيقا بالأشياء وعلاقتنا بها.. وعندما يستيقظ فينا هذا الإحساس بالنسبة للأشياء الخارجة عن ذواتنا نحس أننا نتصل اتصالا وثيقا بجوهر هذه الأشياء، ونعرف سرها، ونتوقف معها، وهذا الإحساس يهدئنا ويريحنا مما ليس في مقدور أي إحساس آخر أن يفعله.

فالشعر إذن تفسير للحياة ولكنه ليس تفسيرًا فلسفيا أو تحليلا للحياة وإنما نوع من المعرفة عن طريق التعاطف لا التعقل. إنه الإحساس والفكر معا. وبهذا المعنى يتضح لدينا أن آرنولد يعتقد بأن كل شعر عظيم هو أخلاقي مهما كان موضوعه، وهو يكتسب هذه الأخلاقية من طريقة "اتصاله" بهذا الموضوع وما يتبع ذلك من تطهير لنفس القارئ، فلا يكون الشعر العظيم أخلاقيا بتقريره أو شرحه للحقيقة وإنما باتصاله بالحقيقة. وإذن فالصفة الأولى للشعر العظيم هو الإخلاص للتجربة، وهذا أول شيء يضمن لنا سلامة المضمون الأخلاقي به سواء أكان يعالج موضوعا (مثل الطبيعة وإيقاعها) يبدو أنه لا علاقة له بالاعتبارات الأخلاقية، أم لا.

وبهذا يعطينا إلى جانب الإحساس بوجود الأشياء ذاتها، إحساسا بعلاقتها بحياة الإنسان ووجودها في أبعاد تكسبها أهمية أكبر من أهميتها الحسية.

وتأكيد آرنولد لأهمية الشعر الطبيعية له مغزاه فهو يصر على أن الشعر العظيم يكتسب تأثيره من نوع مختلف من الاتصال بالحقيقة- الحقيقة "الأخلاقية" أكثر منها الحقيقة الطبيعية فهو يقول:

"الشعر يفسر العالم الطبيعي، ويفسر العالم الأخلاقي".

وهو يعلق الأهمية الكبرى على الجانب الثاني .